البناء الفنّی فی‌خماسیّة «مدن الملح» الروائیة لعبدالرحمن منیف

الدکتورة معصومه شبستری[1]

أستاذة مساعدة بجامعة طهران

الدکتور احمدرضا صاعدی

أستاذ مساعد بجامعة اصفهان

(از ص ۱ تا ص۲۸)

تاریخ دریافت مقاله ۱۳۸۹/۰۸/۰۳، پذیرش ۱۳۹۰/۰۷/۱۵

الخلاصة:

تهدف هذه المقالة الی إبراز النواحی الفنیّة فی‌خماسیّة «مدن الملح» الروائیة لعبدالرحمن منیف مثل: الأسلوب، و اللغة، و بناء الشخصیات، و البعدین المکانی و الزمانی؛ و الی بعض القضایا الفنّیه التی اعتمدها منیف فی‌بناء خماسیّته نحو: إتمام المعنی الروائی فی‌کل جزء، تسلسل أجزاء الخماسیّة، و التفاوت فی‌المستوی الروائی بین أجزاء الخماسیّة و علاقته بالواقع، و عناوین الأجزاء و مدلولاتها.

الکلمات المفتاحیة: الروایة الأدبیّة، عبدالرحمن منیف، خماسیّة «مدن الملح».

۱. نشانی پست الکترونیکی نویسنده مسؤول: Shabestari82@yahoo.com

Archive of SID

www.SID.ir

مقدمة:

ولد عبدالرحمن منيف عام ۱۹۳۳م، فی‌عمان، لأب نجدی سعودی، و أمّ عراقيّة. و حصل منها على الثانويّة العامّة. و لمّا نشأت الأحزاب فی الأردن إبان الخمسينات إنتسب إلى حزب البعث، ثم التحق بكلية الحقوق فی‌بغداد عام ۱۹۵۲م، ثم طرد منها سنة ۱۹۵۵م، نتيجة أسباب سياسية، و فی‌مقدمتها اشتراكه فی‌الإضراب ضد توقيع حلف بغداد، فواصل دراسته فی‌جامعة القاهرة. و فی سنة ۱۹۵۸م، سافر الى بلغراد (يوغسلافيا)، و تحول عن دراسة الحقوق الى الاقتصاد؛ فحصل على درجة الدكتوراه فی اقتصاديات النفط عام ۱۹٦۱م، و عمل بعدها فی مجال النفط بسورية عام ۱۹۷۳، انتقل ليقيم فی بيروت حيث عمل فی‌الصحافة اللبنانية، و بدأ الكتابة الروائية بعمله الشهير (الأشجار و إغتيال مرزوق) عام ۱۹۷۵م. اقام منيف فی‌العراق و تولّى تحرير مجلة (النفط و التنمية) حتى عام ۱۹۸۱م حيث غادر فی‌العام نفسه العراق الى فرنسا متفرغاً للكتابة الروائية. و فی‌عام ۱۹۸٦م، عاد مرة أخرى الى دمشق حيث توفّى فيها عام ۲۰۰٤ م(القشعمی، صص ۳۳ ــ ۱۳).

و صدر لمنيف مؤلفات فی فن الرواية و مؤلفات فی الاقتصاد و السياسة. و عدد كبير من النقاد و القراء اعتبروا خماسيته (*مدن‌الملح*) التی تربو الفين و خمسائة صفحة، فی الصدارة من اعماله الروائية؛ حيث نال من أجلها، جائزة الإبداع الروائی فی‌القاهرة عام ۱۹۹۸م. و قيل «هی الرواية الاطول فی‌الأدب العربی الحديث»(Sabry, P.15)

شكّلت «مدن الملح» منعطفا فی‌نتاج عبدالرحمن منيف الروائی، نظراً لضخامتها (۲٤٤٥ صفحة)، و للجهد التوثيقی و البحث التاريخی اللذين تضمنتهما، و لحشد الشخصيات (اكثر من مئة شخصية، و إن‌كان جلها ثانويا)، و لطول الفترة الزمنية التی غطاها العمل (ما يزيد على نصف قرن)، و ولوجه عالمين (النفط و الصحراء) لم يكن قد عالج تداخلهما أحد على هذا المستوى من الإتساع و الدقّة والتعمّق من قبل. كما أنّها

Archive of SID

www.SID.ir

جسدت جهداً استثنائیاً قام به منیف لإبقائها متماسکة فی بنیتها الروائیة من خلال ربط أوصالها بعناصر فنیّه، هی ما سندرسه فی‌هذا البحث.

لعله من المفید قبل البدء فی معالجة النواحی الفنیّه الخاصة بالأسلوب و اللغة و بناء الشخصیات و البعدین المکانی و الزمانی، التطرق الی بعض القضایا الفنیّه التی اعتمدها منیف فی بناء خماسیّته.

إتمام المعنی الروائی فی‌کل جزء

اعلن منیف أنّه لم یکن یعرف کم سیکون عدد أجزاء روایته و لاکیف ستنتهی: «لم أقرر بعد أن یکون ثلاثیة أو اکثر، إن تطور العمل و متابعته، هما اللذان یحددان فی النهایة حجمه و أجزاءه ...» (منیف، *الکاتب و المنفی*، ص ۲٤۸). علی أنّه عمد الی إتمام المعنی الروائی فی‌کل جزء علی نحو یمکن معه الإکتفاء بقراءة الجزء الواحد للوقوف علی الواقع الاجتماعی الذی تصوره الخماسیّة. فیمکن أن تفهم أحداث کل جزء بمعزل عن أحداث باقی الأجزاء، أذ إنّها تنطلق من نقطة ما مع بدایة کل جزء لتنتهی فی نقطة أخری ضمن الجزء نفسه. و یحوز استثناء الجزء الرابع من الخماسیّة الذی تدور احداثه فی «المنفی» فی آلمانیا، فهو مختلف جغرافیا عن باقی أجزاء الخماسیّة.

تسلسل أجزاء الخماسیّة:

یمکن القول إن «*مدن الملح*» بدأت بجزأین (*التیه و الأخدود*) متتابعین زمنیاً، و متواصلین حدثا و بشرا و قالبا روائیاً، مع فارق أساسی بینهما فی‌المستوی الفنی، إذ یأتی الأول غنیا بالرموز و الجمالیات الصوریة فی‌حین یجیء الثانی وصفیا تقریریا، و هما یؤرخان لظهور النفط کحدث مزلزل اجتماعیا و مکون لمدن وعلاقات جدیدة. ثم تلاهما جزء ثالث (*تقاسیم اللیل* والنهار) فیه عودة تاریخیة الی الوراء، تورخ لقیام السلطنة حیث تفجر النفط و ما تخلله من حروب و أحداث. و ترافقت هذه العودة التاریخیة مع تغیر فی‌نمط الأحداث و شکل التعامل مع الزمن، یتحول معه العمل الروائی الی عمل تاریخی

Archive of SID

www.SID.ir

یعرض أحداثا فی قالب قصصی. ثم یکمل الجزء الرابع (*المنبت*) أحداث الجزء الثانی و یتشبه به من حیث التقریریة فی التعاطی مع الحدث و رسم الشخصیات. أما الجزء الخامس و الأخیر (*بادیة الظلمات*)، فیتضمن فی مشاهده أسالیب ظهرت فی‌جمیع الأجزاء السابقة و انعکست علی مستویاتها الروائیة، إذ فیه عودة الی الجزء الأول من خلال صوره و رموزه، و الی الجزأین الثانی و الرابع من خلال وصفه و متابعته تصویر الواقع و شخصیاته بأسلوب مباشر؛ کما فیه عودة الی الجزء الثالث بقصصه التاریخیة.

التفاوت فی‌المستوی الروائی بین أجزاء الخماسیّة و علاقته بالواقع

ثمة انطباع یتولد منذ القراءة الأولی للخماسیّة مفاده أن العمل الفنّی القائم علی الترمیز و القدرة علی تولید الأحداث من خلال الشخصیات و الأمکنة و الأزمنة و المشاهد تراجع مع إنتهاء الجزء الأول «التیه»، لیطغی الجانب البحثی الانثروبولوجی علی باقی الروایة، قبل أن یعود فیطل من جدید فی بعض فصول الجزء الخامس «بادیة الظلمات». (آغا، ص ٤٢).

و بالرغم من أنّ عبدالرحمن منیف یقول: «إنّ الهمّ الأساسی فی‌هذه الروایة أن تکون فی الدرجة الأولی روایة قبل أی شیءٍ آخر. و هذا الهمّ لم أتخلّ عنه لحظة واحدة ... و أعتقد أنّ الروایة المهمة هی التی تستطیع، تحت غلافها المتکامل و المقنع، أن تکون ذات صلة بعلوم أخری ... إنّ الانثروبولوجیا، و غیرها، لم تکن هدفاً بذاتها، و انما أملتها طبیعة الموضوع و المعالجة». (منیف، السابق، ص ٢٤١)، غیر أنّ منیفا یعترف فی‌مکان آخر بأنّ «التیه» کانت الاقوی و بأنّها شکلّت الأرضیّة التی ارتکزت علیها الخماسیّة و عالمها: «التیه ربما أقوی، إنّها الفرشة، إنّها الأفق الذی رسمت فی إطاره الشخصیات بکل جموحها و غموضها ... إنّه الشیء الجدید المستغرب غیر المتألف مع‌الطبیعة و تقالید الناس و عیشهم التقلیدی المرتبط بطبیعة معینة ... کان شکل الإنسان قبل تدفق الثروة

Archive of SID

www.SID.ir

النفطیة کالخیزرانة و أصبح الآن کالبرمیل. أصبح کبرمیل النفط فی‌کرشه و مؤخرته و استدارته. إنّه شکل غیر متلائم مع الطبیعة» (منیف، نفس المصدر، ص ۲۱۰).

فالجزء الأول (*التیه*)، الملیء بالرموز، یأتی إنطلاقا من واقع الصحراء الطبیعی، واقع ما قبل الغزو النفطی و تجلیاتة الإجتماعیّة، و فیه تالیاً مزیج من الرومانسیة الصحراویة و «الأصالة» البدویة. و یتتابع هذا الجزء مع الوقوع الزلزال النفطی و ما أحدثه من دمار «إجتماعی» و ذهول و انتهاک للحیز المکانی و هجرات جماعیة و قیام مدن جدیدة و أنماط حیاة لا عهد لأبناء الصحراء بها من قبل، و یضاعف الی ذالک شعور عارم بالهزیمة و الإنتظار.

و یرکز الجزء الثانی (*الأخدود*) علی عملیة وصف مسار التطورات الإجتماعیة التی أنتجها النفط، و علی الشکل الجدید للسلطات التی قامت و ممارساتها. و یؤدی هذا الوصف الی نوع من التسطیع فی‌العمل الروائی، بحیث یأخذ شکلا تقریریا ینتفی معه الترمیز و التعقید المنفی.

أما فی‌الجزء الثالث (*تقاسیم اللیل و النهار*)، فقد إتکأت الروایة الی فصول قصص تاریخیة متفرقة، تشبه التشکل التاریخی المبعثر لما أسماه منیف «المملکة الهدیبیة»، و هو التشکل المنبعث من مجموعة حروب و مساومات و مداخلات أجنبیة و ترسیمات حدود و یتخذ هذا الجزء طابع السرد التاریخی المتعدد المشاهد.

و فی‌الجزء الرابع (*المنبت*)، نعود من جدید الی أجواء الجزء الثانی، حیث الواقع الناشیء یستفحل فی‌تشوهاته. و ینعکس ذالک علی السیاق الروائی لهذا الجزء فیخلو من أی ترمیز. کما یتشابه هذا المناخ السلبی مع الاجواء النفسیة القاسیة المسیطرة علی شخصیات هذا الجزء نتیجة المنفی الجغرافی و النفسی و الموت و الانتحار.

غیر أن تبدلاً یطرأ فی الجزء الخامس و الاخیر للخماسیّة (بادیة الظلمات)، بحیث یحاول منیف ان ینوع فی‌أسالیبه مستعیداً أجواء الأجزاء السابقة جمیعها، لیواکب بها مایراه تسارعاً فی‌الأحداث و الانقلابات و توالداً لحالات جدیدة من الخوف و الإنتظار

Archive of SID

www.SID.ir

فی «سلطنة موران» من ناحیة، و لیسلط الأضواء، من ناحیة ثانیة، علی خلفیة هذه التحولات عبر العودة الی الوراء، التی کان قد لجاء إلیها طیلة الجزء الثالث...

عناوین الأجزاء و مدلولاتها:

لعناوین الأجزاء اهمیة خاصة إذ هی تعکس أیضا مضمون کل جزء لجهة تعبیره عن الاشکالیة التی یحاول الجزء طرحها. «*مدن الملح*» مدن هشّة، سریعة الذوبان، لاتصمد حتی امام الرّذاذ و الأرض المالحة لاتنبت، و الماء المالح لایصلح للشرب أو للرّی. «فهی رمز للمدن التی قامت علی غیر اساس متین و التی ستسقط، و تذوب عند مواجهة نقطة الماء الأولی.» (النابلسی، ص ٥٩).

و حین سئل منیف عن سبب تسمیة الروایة بـ«مدن الملح» و لیس مدن النفط الذی هو أقرب الی موضوعها، بل موضوعها الأساس؟ أجاب: عندما یفکر الانسان للوهلة الأولی لاختیار عنوان لهذه الروایة فسیقع اختیاره علی مدن النفط، لکنی قصدت بمدن الملح، المدن التی نشأت فی برهة من الزمن بشکل غیر طبیعی و استثنایی. بمعنی لیست نتیجة تراکم تاریخی طویل أدّی الی قیامها و نموها و اتساعها، إنّما هی عبارة عن نوع من الانفجارات نتیجة الثروة الطارئة. هذه الثروة (النفط) أدت الی قیام مدن متضخمة أصبحت مثل بالونات یمکن أن تنفجر، أن تنتهی، بمجرد أن یلمسها شیء حاد. الشیء ذاته ینطبق علی الملح. فبالرغم من أنّه ضروری للحیاة و الإنسان و الطبیعة و کل المخلوقات، إلا أن أی زیادة فیکمیته، سواء فی الأرض أو فیالمیاه تصبح الحیاة غیر قابلة للاستمرار. هذا ما هو متوقع لمدن الملح التی عندما تنقطع منه الکهرباء أو تواجه مصاعب حقیقیة من نوع أو آخر سوف نکتشف ان هذه المدن هشة غیر قادرة علی الاحتمال و ...» (منیف، *الکاتب و المنفی*، ص١٤٥).

«فالتیه» تشیر الی الضیاع و النزوح و النفی و فقدان الذات (ابنمنظور، مادة: توه)، أی أنّها تجسد عنوان الأزمة التی عصفت بالمجتمع الصحراوی معالحدث النفطی. و

Archive of SID

www.SID.ir

«الأخدود» تعنی «الحفرة المستطیلة من الأرض» أی الشّرخ. و الضربة الأخدود هی الضربة الشّدیدة التی تشق الجلد. و الأخادید آثار السّیاط فی‌الجسم ... و أصحاب الأخدود هم ملوک «الیمن» الذین کانوا یضرمون النار فی‌الحفر (الخنادق ـ الأخادید) و یلقون فیها المؤمنین باللّه. (رضا، مادة: خدد). و بهذا المعنی تؤکد «الأخدود» حجم الهوة السحیقة التی انحفرت بین مرحلتی ماقبل النفط و ما بعده، و التی بات یعصب ردمها، کما تشیر الی الشرخ الشاسع الذی وقع فی‌أسرة الدکتور صبحی المحملجی.

أما *تقاسیم اللیل و النهار*، فلها دلالة خاصة، إذ فیها شاعریة و موسیقی و حرکة صعود و هبوط تماثل تنوع الاحتمالات التی کان یمکن حصولها عند ترسیم الحدود الصحراویة (*الرملیة*) بحیث کانت ترسم فی‌اللیل تحت الجناح الظلام، و یعلن عنها فتکتشف فی النهار مع بزوغ الضوء. و فی‌الجزء الرابع الذی تدور أحداثه فی‌المنفی، یأتی العنوان *المنبت* لیمثل حال الشخصیة الرئیسة (الحکیم) المنفیة المبتورة الجذور التی بت بأمرها، و لم تعد قادرة علی العودة أو الاستقرار فی أی مکان نظراً لماضیها و صلاتها و رهاناتها المیتة. ثم تختتم الخماسیّة «ببادیة الظلمات» التی تصور مزیجاً اجتماعیا و تاریخیا فیه من الظلامیة و من التناقضات القدر الذی یشبه التناقضات القائمه بین البادیة و الظلمات. و هی تعنی ذهاب النور من الأفق أو عدم النور. (رضا، مادة ظلم) فهل بادیة الظلمات هی صحراء لظلمات جدیدة؟ ظلمات یغیب جرّاها نور المعرفة و الکشف و الحریة معاً.

و ثمّة مفارقة تمکن فی أنّ العنوان الأول رمز الی الضیاع، و الأخیر الی الظلام، و کانّها الرحلة النفطیة من الضیاع الی العتمة الحالکة. علی أن بدایة کل جزء و نهایته تجسد فی ذاتها هذه الرحلة. (آغا، ص ٥٤).

اللغة و الأسلوب:

من أبزر عناصر الخماسیّة التی یجدر التوقف عندها، اللغة المستعملة علی امتداد اجزائها و الأسلوب الروائی المرافق لهذه اللغة. فالتنوع اللغوی فیها و تعدّد الأسالیب (إن

Archive of SID

www.SID.ir

لجهة اعتماد الفصحى أو العاميّة بلهجاتها أو التركيز على الحوارات أو السرد أو الإستشهاد بالأمثال و الحكم) يشكّلان أساس صياغتها.

و لعلّ لغة منيف فىالخماسيّة تنبع فى الأساس من موقفه من اللغة الروائية، اذ يعتبر أن «اللغة فى الرواية مسألة شديدة الحساسية، فهى متعددة، متنوعة، غير مطلقة، و جمالها لاينبع من الفخامة قدر ما يرتبط بالدقة من ناحية و التوازن الداخلى من ناحية ثانية» (منيف، السابق، ص ۸۲) و يشير منيف فىنظرته هذه الى مذهب باختين فىالتعاطى مع اللغة الروائية، و مفاده أنّ: اللغة الأدبية لاتقدم فى الرواية على أنّها اللغة الواحدة الناجزة تماماً، يل تقدّم فى تنوعها الكلامى الحى بالضبط، فى عملية تكوينها و تجدّدها» (باختين، ص ٢٤١).

و عليه لجأ منيف على امتداد الخماسيّة إلى التنويع فى استخداماتة اللغوية. ففى الجزء الأول، «التيه» توزع الأسلوب اللغوى بين الفصحى فىالسرد و رواية الأحداث وصف الأمكنة و البحث فىالعلاقات الانسانية القاومة أو الناشئة حديثا، و اللهجة البدوية فىالحوارات الكثيرة التى تدور بين الشخصيات و فىالتشبيهات التى تتضمنها. «فالتيه» تبدا بمقطع يصف وادى العيون، و كانّه الجنة، و كان ذالک طبعاً قبل الظهور النفط فيه و هو يستخدم فيه الفصحى: «وادى العيون ... فجأة، وسط الصحراء القاسية العنيدة، تنبتق هذه البقعة الخضراء، و كأنّها انفجرت من باطن الأرض أو سقطت من السماء فهى تختلف عن كل ما حولها، أو بالأحرى ليس بينها و بين ما حولها أية صلة، حتى ليحار الإنسان و ينبهر، فيندفع الى التساؤل العجب: كيف انفرجت المياه و الخضرة فى مكان مثل هذا؟ (منيف، مدن الملح، التيه، ص ۷) و تختتم بحوار بين شخصيتين تستخدمان اللغة الدراجة:

«قالت خزنة لابن نفاع و هى تربط جرحه من جديد :

ـ قولک، يا أبو عثمان، إن دم مفضى ما يروح.

رد و هو يضحک:

Archive of SID

www.SID.ir

ـ دم مفضی، یا خزنة، راح ... راح.

ـ راح!

ـ اسألی، یا بنت الحلال، هالحین دم من! ...» (منیف، المصدر نفسه، ص ۵۸۲)

و فی‌الجزء الثانی، *الأخدود*، تداخلت اللهجات و امتزجت بالفصحی. فالشخصیّة المحوریة فی‌هذا الجزء هی الحکیم المحملجی القادم من الشام حاملاً لهجة شامیة یستخدمها مع عائلته فیما یحاول تقلید اللهجة البدویة فی تحاوره مع أهل البلاد، مما یخلق لهجة جدیدة خاصة به. و یضاعف الی ذالک اللهجة المصریة التی یحمل سمیر قصیر و التی تبرز حین یناجی نفسه أو حین یرافق الحکیم فی سهرة أو جلسة حمیمة: «و عایزنی اکتبها له، دا راجل عبیط لأن اللی عنده نظریة لازم یکتبها بنفسه، والا ایه یا بیه» (منیف، مدن‌الملح، الأخدود، ص۴۳۵).

و فی الجزء الثالث، *تقاسیم اللیل و النهار*، یتغیر المناخ اللغوی إذ یختلف مضمون هذا الجزء عن غیره، کونه یمثل انتقالاً زمنیاً اعتراضیاً الی الماضی. و یستخدم منیف فی‌هذا الجزء الحوارات بکثافة و هی بکاملها باللهجة البدویة مع إکثار من استخدام الأمثال الشعبیّة و الحکم. و قد اختار منیف و قبل استهلال المشهد الروائی الأول، أن یبدأ باستذکار مثل بدوی: «ذاک الغیم جاب هذا المطر» (منیف، المصدر نفسه، ص ۵).

أما فی‌الجزء الرابع، *المنبت* فإن المزج بین الفصحی و اللهجتین البدویة و الشامیة هو ترجمة لحضور الحکیم (الشامی الأصل) من جدید. و یختلف هذا الجزء عن باقی الأجزاء فی کونه یزرع اللغة و اللهجات فی‌غیر موضعها الجغرافی أو الاجتماعی الطبیعی، الأمر الذی یخلق شعوراً مختلفاً. فأحداث هذا الجزء تدور فی‌المنفی الآلمانی حیث الطبیعة و الأمکنة مختلفة جذریاً عما کانت علیه فی الصحراء. لذلک، تصبح اللغة و اللهجة البدویة وسیلتین لإعادتنا الی الجو الصحراوی و ما یمثله اجتماعیاً و ثقافیاً.

و فی‌الجزء الخامس، *بادیة الظلمات*، لایشذّ منیف کثیراً عن القواعد اللغویة التی أرساها. غیر أنّه، و فی‌اللغة أیضاً، یستعید مختلف الأسالیب اللغویة التی تضمنتها باقی

Archive of SID

www.SID.ir

الأجزاء، أی أنّه یغوص فی‌التاریخ و السرد و الحوارات و یستخدم الحکم و ینقل الکلام عن رواة متعددین لیقدم جوا ملحمیاً یهدف الی إقفال الخماسیّة، و فتح نافذة منها علی المستقبل الذی لن یختلف، بحسب الخماسیّة نفسها، عن الماضی و الحاضر حیث یتأسس.

و یقول منیف فی *الکاتب و المنفی* حین یسأل عن لغته فی *مدن الملح*: «لقد حاولت الاقتراب من لغة تکون اکثر دقة فی التعبیر. فأنا ضد استخدام اللهجة العامیّة من جهة، و ضد استخدام اللغة الفصحی المبالغ فیها.کیف یمکن لنا أن نتوصل إذن، فی‌الحوار، الی لهجة تستطیع التعبیر عن طبیعة الشخصیة الروائیة؟ إن اثنین من المثقفین یتناقشان فی مشکلة الزمن أو الموت یمکن لهما أن یستعملا کلاماً متحذلقا، و یبقی هذا مبررا و لکن اثنین من البسطاء یتحدّثان فی أمور یومیة، لانستطیع ان نحملهما کلاما لا یحتملانه فی المفردات أو فی‌الترکیب و الا سقطنا فی‌التزویر. علینا أن نصل الی لغة حوار فیها اقتراب من الحیاة و من الناس» (*منیف، الکاتب و المنفی* ص۱۵۵). و یری أحد الباحثین فی الأدب العربی «أنّه عانی قبل الوصول الی هذا الموقف من اللغة لأنّه کتب الحوار فی‌روایاته الأخری بالعربیة الفصحی. لکنه فی‌کلا الحالتین حمّله دلالات سیاسیّة و إجتماعیة.» (ابراهیم، ص ١٣٦). فهو اعتزم استخدام «لغة وسطی» بین الفصحی و العامیة، و لکنه «لم یکن کلی الاقتناع بالأسلوب الذی توصل الیه. الا أن مثل هذه اللغة، بوصفها أداة للمزاوجة بین التاریخ و الروایة علی اوسع نطاق، فعالة علی نحو مدهش.»(Sabry, p.15)

من هذا المنطلق إذن، صاغ منیف لغته، فجعلها حقلاً لتفاعل شخصیاته و الأحداث، و نجح الی حد بعید فی‌مزاوجة العامیة بالفصحی وفقاً لمقتضی العمل الروائی و تطور مراحله.

Archive of SID

www.SID.ir

الأسلوب:

لا یفرق الکثیرون فی حدیثهم عن الروایة بین لغتها و أسلوبها. و لکن تبقی بعض الفروق البسیطة التی تفصل بین اللغة و الأسلوب؛ «اذ أن اللغة مجموعة من المفردات و الکلمات التی تختزنها ذاکرة کل واحد من الرواة. و یتضح الفارق بینهم فی‌توظیف کل منهم لما فی ذاکرته من مخزون لغوی یتوافق مع الشخصیة، و البیئة التی تنطلق منها أحداث الروایة. فاللغة ملک للجمیع، أما الأسلوب فهو خاص بالکاتب» (دیب، ص٣٦٤). إذن الکلام عن الأسلوب، یقتضی الحدیث عن الخصائص التی یتمیز بها الراوی علی غیره، کما تتمیز بها روایة علی أخری، بحیث یختلف الأسلوب بین روایة و أخری، و بین کاتب و آخر.

و علی صعید الأسلوب جمع منیف بین المشاهد بواسطة خیط رفیع، هو خیط الزمن. فالمشاهد و اکثرها تنتمی الی مرحلة تاریخیة واحدة، و تدور فی حیز مکانی واحد، و تخترق بین الحین و الآخر بأسفار زمینة و مکانیة نحو الماضی، أو باستطرادات و ملاحقات لبعض الشخصیات الی حیث مآلها أو تکوینها الخلقی و المهنی (السلطان و الحکیم و الحاشیة و ...).

و تبرز فی الأسلوب أیضاً، عناصر تشیر الی الإنتظار و الترقب کعنصرین ماثلین فی‌معظم أرجاء الخماسیّة، مضافین الی سرد الأخبار و تناقلها شفیها من راو الی آخر، مع تکرار افعال الإنتظار و التطلع نحو المستقبل. و یشبه هذا الأسلوب أیضاء حیاة اهل الصحراء و حیاة الناس العادیین العاجزین و الصبورین، کما یشبه الصحراء نفسها التی لاتمل إنتظار القوافل و الأمطار و المفاجآت.

و فی‌جانب آخر، تعبر صیغ نقل الأخبار و التشافه الدائم بین الشخصیات، و بشکل خاص فی‌نهایة الجزء الخامس من الخماسیّة عن نمط التأریخ عند شخصیات *مدن الملح* القائم علی الاستذکار الشفهی و نقل الاخبار: «قال الذین عاشوا فی تلک الفترة، إن الدنیا بدأت تصغر و تضیق حتی اصبحت کحبة خردل. و قالوا: الأغنیاء یزدادون غنی و الفقراء

Archive of SID

www.SID.ir

فقراً و قالوا: اختلطت الأمور، و اختلّت المقاييس، فلا أحد يعرف ما هو الصحيح و ما هو الخطاء، ما يجب أن يفعله، و ما يجب ان يجتنبه. و فی‌اواخر الليل... قال المسنون: آخر الزمان. و قالت النسوة: لابد أن يأتی المهدی، و معه الخضر ...» (منيف، *مدن‌الملح*، ص۵۷۰). و عليه، يصبح التاريخ مجموعة أخبار منسوبة الى أجيال من الرواة تتناقلها الألسن و تحرّفها، و قد يعود بعضها الى منجمين و عرّافين، على نحو ما تم فی‌الجزء الأول، «التيه» مع نجمة المثقال، عرّافة «وادی العيون» التی لخّصت تاريخ الوادی (منيف، *مدن الملح*، التيه، ص ۱۵۷).

و يتجلى هنا تداخل الأصوات و كثرتها، اصوات المسنين و صوت النسوة و صوت الآخرين، داخل الرواية الواحدة من خلال تقنيات مختلفة و تعتمد هنا التقنيات على نقل كلام الأخر «فتقوم رواية «مدن الملح» على كثير من الأسلبة فی‌إنتاج تداخل الأصوات، بل هی سمات لايمكن أغفالها فی أول قراءة.» (المحادين، ص ۱۳۳). و هذا ما يؤكد دعوة (باختين) حين نادی بأن اول مزايا السرديات «هو تعدد الاصوات و تعالق اللغات» (باختين، ص ۸۹).

مسألة أخرى فی الأسلوب ينبغی أن نشير إليها، هی مسألة اللجوء الى كم هائل من الأمثال و الأقوال و العبارات الشعبية الممتلئة سخرية و طرفاً، و بشكل خاص فی‌الجزء الاخير، مثل الاستشهاد بأبيات من الشعر القديم و مقاطع من رسائل الجاحظ و ابن قتيبة: «كتب على بعض ابواب المدن بالمسند: احفظ رأسک، و قالوا: مقتل المرء بين فكيه، و قال بهرام: و سمع فی الليل صوت طائر فتحداه بسهم و هو لايراه، الا أنّه تتبّع الصوت فصرعه، فلما صار بين يديه قال: و الطير أيضاً لو سكت كان خيراً له... ما شیء أحق بطول سجن من لسان» (منيف، مدن الملح، ص ۳۷۱).

لقد استطاعت «مدن الملح» أن تنسج بلغتها و أسلوبها حكايات و وقائع و صياغات جديدة للأحداث، فخلقت وثيقة غنية بتنوع مناخاتها من ناحيتی الشكل و المضمون.

Archive of SID

www.SID.ir

مساحتا الخماسیّة الزمانیة و المکانیّة

لا توجد فی *مدن الملح* أی تواریخ، کما لا توجد أیة تسمیات حقیقیة للأمکنة غیر أن الشعور المتولد من صفحاتها یشی بالتواریخ و ما حوته، و بالجغرافیا و سأوجز ذلک فی الفقرتین التالیتین.

الزمان

منذ البدایة یرمی الروای إِشارة زمنیة إلی فترتین عاشهما وادی العیون، الأولی کما یری متعب الهذال الوادی، و الثانیة هی ما تلا ذلک. (*منیف، مدن الملح، التیه*، ص ۸ ـ ۹). و لن یطول بنا الإنتظار کیما ندرک من السیاق السردی، و لیس بعون من اعلان أو تأشیر زمنی، أن الفترة الأولی تعنی ما قبل وصول الأمیرکان المنقبین عن النفط الی وادی العیون، و الفترة الثانیة ما اعقب ذلک الوصول.

تقع أحداث الجزء الأول فی أواخر العقد الثانی من القرن الحالی، و تکمل أحداث باقی الأجزاء العقود اللاحقة الی یوم إنجاز الکاتب نصه، أی الی منتصف الثمانینات. و یستثنی من السیاق المذکور الجزء الثالث الذی یعود بالذاکرة الی مطالع القرن حین تأسست الممالک فی الجزیرة العربیة و رُسمت حدودها. کما یمکن استثناء الجزء الخامس حیث الأزمنة تتداخل نتیجة العودة بین الحین و الآخر الی الماضیین البعید و القریب، و الی الروایات المختلفة حول مجریات الأمور.

قبل أن نذهب أبعد، نعود مع *التیه* الی البدایة، و نتابع، و یکون علینا أن نجمع الإِشارات المتناثرة کیما ندرک أننا فی‌الثلاثینات من هذا القرن عندما یظهر الأمیرکان فی وادی العیون و تبدأ الروایة. و لعله مطلع الثلاثینات أو منتصفها. و نذکر من تلک الإشارات و لادة مقبل ابن متعب الهذال و تقدیر عمر فواز شقیقه.

و الذاکرة هی التی تحدد و لادة مقبل أو غیر مقبل، لا السجلات الحکومیة. و هذه الذاکرة تؤرخ بالعلامات الفارقة و بالأحداث الکبیرة، کولادة أخری، أو سنة جراد، أو سنة

Archive of SID

www.SID.ir

طوفان أو سنة «الحرب العمومية». إن الذاكرة، و هذا النحو من تعاملها مع الزمن، سمة بارزة من سمات جريانه فی‌الرواية أما السمة البارزة الأخرى فهی ابتداء بتمفصل زمنی صغير، و منقطع و إذا كان هذا النمط من العبارة يخف حيناً فی خطا الرواية التالية، أو يندس فی ثنايا الفقرة بدل مطلعها، فإنّه يظل النمط الأغلب نقرأ مثلاً:

بعد سبعة عشر يوماً رحل الأميريكيون ـ مرّ الصيف كله و جاء بعده الخريف ـ فی‌الايام العشرة الأخيرة من المربعانية ـ بعد الفجر بغليل ـ مع غياب نجمة الصبح ـ عند العصر ـ بعد الغروب ـ فی أواخر تلک الليلة من ليالی الصيف المتأخر أو بداية الخريف ... (صص ٢٠، ١٥، ٧، ٨ ...).

فی هذا النمط يرتسم الزمن بتمفصلاته الصغرى أما التمفصلات الكبرى فتتناءى فی‌الجزء الواحد ـ لنعد الى فترتی وادی العيون مثلاً ـ و يكون علينا أن نتقراها من السياق السردی، من الأفعال الكبرى، و فيما بين الأجزاء. و فيما يخص «التيه» فليس سوى تينک الفترتين، فقيام حران و انتقال التيه اليها بقية هذا الجزء محدد بالفترة الثانية ـ ما بعد وصول الأميركيين و ظهور النفط.

أما الأخدود فتنقلنا عقدين الى الأمام، و لكن التحديد الدقيق مستحيل، فجل ما تحدده الرواية من البداية الى النهاية هو: مطالع القرن، منتصف القرن، الحرب العالمية الأولى. بل ان هذا الجزء الذی يبدو قريباً من الحرب العالمية الثانية، لايذكرها البته، أو لايشير إليها.

فی‌الجزء الثالث نعود الى (مطلع القرن، العقود الأولى)، و تلک هی العبارة الأولى. فهذا الجزء يبدأ بالاشارة الزمنية، بينما بدأ الجزء الاول بالاشارة المكانية، و قد كانت عبارته الأولى: «إنّه وادی العيون». و فی‌نهاية الأخدود يتحدد موعد زواج السلطان خزعل من سلمی بنت الحكيم المحملجی فی‌ذكرى مرور ثلاثين سنة على قيام السلطنة، الدولة الهديبّية.

Archive of SID

www.SID.ir

و فی‌الجزء الثالث نعود کما ذکرنا الی ما بعد الحرب العالمیة الأولی (العقود الأولی من مطالع القرن)، نعود الی المرحلة الأولی، الی البدایات، حین کانت موران صحراء یتناهبها الأمراء المائة، و استعاد خریبط الإمارة التی أزاح والده عنها منافسوه قبل رحیل الأتراک...

مع الجزء الرابع *المنبت* یتخذ الزمن مساراً خطیاً، تصاعدیاً، سوی النزر الذی یستدعیه المنفی من الذکریات الموجعة. فهذا الجزء یروی حیاة خزعل المخلوع و من معه فی‌المنفی، و الحکیم فی‌رأس من معه، فیبدأ مع استیلاء فنر علی السلطة و ینتهی بموت خزعل، فیما تکون الدولة الهدیبیة قد انطلقت إلی آفاق أبعد و أعقد...

فی‌الأجزاء الثلاثة السابقة قبل المنبت، و فی‌القسم الأول من الجزء الأخیر ـ و هو موزع علی قسمین ـ یمارس منیف دوماً الاستباق الزمنی الذی رأینا، منذ بدایة التیه، کما یمارس الأرجاع. و نمثل لذلک من بین أمثلة جمة بما أفرد لنشأة وداد الحایک و زواجها من الحکیم، و جمله ما عاشت قبل قدومها الی موران (*منیف، مدن الملح، الأخدود*، ص ٤٧ و ما بعد). لقد توسل السرد بالإرجاع مراراً حیث یتداخل الزمن، و یتغیر بالتقدم و التأخر عبر المسار السردی، و هذا ما یطلق علیه «اللاتسلسل الزمنی». و اللاتسلسل، أو التذبذب، أو «التشویش» ـ حسب قول طودوروف: یصطنعه الروائی لغایة جمالیة» (مرتاض، ص۲۲۱).

و نستطیع أن نقول الآن فی محاولة لإعادة ترتیب الزمن فی هذا العالم الروائی: إنّ الروایة تبدأ فی مطلع القرن و تستمر الی ما بعد منتصفه، فتغطی قرابة نصف قرن. و فی هذا المسار تمیز: المراحل الآتیة.

الأولی: الهزمیة أمام المنافسین. الثانیة: استعادة خریبط و عمه دحیم للسلطنة فی موران. الثالثة: السیطرة علی الإمارات المتناثرة المتنازعة و قیام الدولة الهدیبیة المتحالفة مع الإنکلیز. الرابعة: ظهور النفط. الخامسة: موت خریبط و ولایة خزعل و البحبوحة التنمویة. المرحلة السادسة: إزاحة خزعل و ولایة فنر و دخول الدولة فی مرحلة القوة المالیة و العکسریة علی المستوی الإقلیمی و العالمی.

Archive of SID

www.SID.ir

و أما فی‌الجزء الخامس فتتداخل الأزمنة نتیجة العودة بین الحین و الآخر الی الماضیین البعید و القریب، و الی الروایات المختلفة حول مجریات الامور. و انقسم الی قسمین، عنوان الأول بـ(ذاکرة الأمس البعید) و عادت فیه الروایة الی زمن تأسیس الدولة و تربیة فنر، ... و أما القسم الثانی فعنوانه (ذاکرة الأمس القریب)، و قد وقف علی مرحلة فنر، و شغل ما تبقی من الجزء الخامس.

و فی‌هذا الجزء یخلخل منیف الزمن «لیرمّم» التاریخ إنّه یخلخه فنیّاً إذ یکسرّه. یهدف من وراء ذلک الی سدّ الثغرات التی ترکها مفتوحة فی بقیة الأجزاء. (ابراهیم، ص ١١٠)

هذا و یقول منیف فی *الکاتب و المنفی* رداً علی سؤال حول فهمه للزمن الروائی: الروایة یجب أن یبدأ تأثیرها علی القارئ من نهایتها. أو بمنی آخر: علی الروایة أن تبدأ فی التفاعل فی‌ذهن قارئها حالما ینتهی من قراءتها، و أن تشغله الی أن یصل الی القلق و التعب، ... إن الزمن فی الروایات ماضء ربما، و لکن انعکاساته و تأثیراته موجودة و مستمرة ... و مفهوم الزمن للکاتب الروائی قد یکون مختلفاً عن زمن الناس الآخرین. الماضی لیس ما وقع من قبل فقط، إنّه ما یملک فعالیة مستمرة، مایزال فی حالة کینونة، موجود و یتفاعل فی ما حوله (منیف، *الکاتب و المنفی*، ص ١٧٥).

بذالک یصبح زمن *مدن الملح* مفتاحاً لفهمها و تأویل تاریخیتها و عنصراً ضروریاً لإشتغال القارئ بأحداثها.

المکان

یعد المکان إحدی الخلفیات التی تعکس وقوع الأحداث و حرکة الشخصیات و نمو الصراع، و لایمکن للروای أن یبنی حکایته مجردة من البیئة المکانیة بل یجب علیه أن یرصد ما یطرأ علیها من متغیرات عبرالزمن، یقول احد انقاد: «المکان فیزیقیا اکثر التصاقاً بالبشر من الزمان، لأن خبرة الانسان بالمکان و إدراکه یکونان مباشرین، تبدأ بالجسد و تذهب بعیداً فأبعد. اما الخبرة بالزمان فتکون غیر مباشرة، من خلال فعله فی‌الأشیاء (لوتمان، ص ٤٨).

Archive of SID

www.SID.ir

ما من شک ان المکان فی الخماسیّة رکن أساس بنیت علیه اکثر جدلیاتها الانسانیة. و قد برز المکان فی‌عنوان الخماسیّة و فی‌عناوین الأجزاء جمیعاً (التیه و الأخدود و تقاسیم اللیل و النهار و المنبت و بادیة الظلمات)، دلالة علی الأهمیة القصوی التی یحتلها المکان فی وجدان الکاتب.

کما أن «المکان» افتتح الخماسیّة، إذ أطلّ «وادی العیون» فی «التیه» منذ البدایة بوصفه مکانا خاصا ینبض حیاة وسط الصحراء (*منیف، مدن الملح، التیه*، ص ۷). و یمثل هذا الاستهلال للخماسیّة تاکیداً علی فرادة الموقع ـ المکان، حیث سیجری الحدث الأول (التنقیب عن النفط) الذی أسس لباقی الأحداث دون استثناء و الخماسیّة نفسها. و یستنتج من وصف ذلک المکان شدة ارتباط الکاتب به وحزنه علی المآل الذی سینتهی إلیه بعد بضع صفحات تلخص بضعة أسابیع. لقد کان وادی العیون جنة، و بات الخروج منه و ضیاعه خروجاً من الجنة. (آغا، ص ۸۳).

الروایة تکرس اهتمامها بالصحراء، فتشکل المکان أهمیة کبیرة فی (الخماسیّة)، و المکان کما یقول الدکتور النابلسی «و هو البطل الرئیسی فی‌هذه الخماسیة» (النابلسی، ص ۲۸۳). و صحراویة المکان تطبعه بعناصر عدة: من اللاتناهی الی الحدود الوهمیة، و من الرمال الی الملح، و من البداوة و الترحال الی البحث الدائم عن ملاذ و ذاکرة. و یصبح هذا المکان هویة لا تبدّلها حرکة اللیل و النهار و اکثر من ذلک یصبح حالة ترافق الشخصیات أینما حلوا.

وثمة ما أغری الکاتب حتماً فی علاقته بالصحراء، مساحة عمله. فهی تتیح له أعادة رسمها و تکوینها من جدید. ومنیف عبر عن ذلک بقولة: « نحتّ أسماء أماکن، و صنعت جغرافیا للمنطقة انا الذی رسمتها. أنا لا اکتب روایة تاریخیة، و لا اکتب روایة وقائعیة بالمعنی المبتذل، و لکننی أحاول أن أری عصری کله: کیف تکّون، و ما هی أبرز المعالم و التضاریس فی هذه المرحلة ...» (*منیف، الکاتب و المنفی*، ص ۱٦۸).

Archive of SID

www.SID.ir

و علی صعید آخر، تطابق المکان و الشخصیات، و بخاصه شخصیات الحنین الی «وادی العیون» أی شخصیات الوادی عینه، و متعب الهذال منهم علی نحو خاص. فقد جمع منیف بین أرض وادی العیون و آل العتوم الذین ینتمی الیهم متعب، و هم فقراء یضجون کرامة و عنفواناً (*منیف، مدن الملح، التیه*، ص ١٤). ثم تاهوا سویة، إذِ التهمت الجرافات و آلات التنقیب عن النفط وادیهم و شردتهم و قطعت أوصالهم و مات الکثیر منهم خلال الرحیل. و منذ ذلک الحین، تغیّرت علاقة الروایة بالمکان. فبعد استقرار قصیر فی مکان واحد هو الوادی، بدأ توالی الأمکنة المرافق للنزوح أو التیه، أو المرافق لتطورات الحدث النفطی، و بات توالی هذه الأمکنة یحاکی حیاة الصحراء إذ یشبه الترحال و حیاة البداوة من ناحیة، و سرعة تطوّر الأحداث و المشاهد و تعدد الشخصیات من ناحیة ثانیة.

و من هذا المنطلق فقد اتسعت أمام الروای، الرقعة المکانیة، و بدأ منیف ینتقل بشخوصه بین العدید من بلدان العالم. و تتمیز روایته هذه بالتحول من بیئتة مکانیة الی أخری سواء أکان هذا التحول من المدینة الی القریة أو العکس أو کان من منطقة الی أخری نتیجة لزیادة المساحة المکانیة أو لنمو التطور الحضاری أو لغیر ذلک. علی ان ذلک «یرجع الی طبیعة الموضوع و الزمن الذی تدور فیه الأحداث و معرفة الکاتب للمکان الذی یکتب عنه.(دیّب، ص ۲۹۸).

الی ذلک، ثمة ملاحظة خاصة بالقضیة المکانیة، و هی:

١ـ المکان الهندسی أو الموضوعی: و هو أن یتعامل معه الکاتب بموضوعیّة، أی أنّه یختار البیئة المکانیة من عالم الواقع (الداخلی أو الخارجی)، و یرتبط بقاء المکان بالأحداث التی تجری من فوقه، و یقال عن هذا المکان: إنّه مکان موضوعی (دیّب، ص ۳۰۰).

و تملأ «الخماسیّة» بهذا النوع من المکان؛ خاصة حینما تقع احداث الروایة خارج الجزیرة العربیة، أی فی‌سوریا و لبنان (حیث منشأ الحکیم و عائلته) و مصر (حیث منشأ

Archive of SID

www.SID.ir

سمیر) و انکترا (حیث تدرب فنر) و آلمانیا (حیث منفی السلطان خزعل) و سویسرا (حیث عاش الحکیم بعد رحیله) و الولایات المتحدة (حیث تدرب حماد و درس غزوان و عمل) و ...

و احتل المکان الهندسی الجزء الرابع من الروایة، بحیث ینتقل فضاء الروایة، بکاملها، الی آلمانیا و سویسرا. لقد أدهش المکان الجدید السلطان العریس الخزعل و لم یکن قد علم بعزله، فقال «هذی هی الجنة التی وعد اللّه بها المتقین» (*منیف، مدن الملح*، ص ١٦)

٢ـ المکان المفترض أو المتخیل: و هو ما ینسجه الروای من خیاله و یفترضه فی‌مخیلته بالنسبة لهذا النوع، نری أنّه قد شغل مساحة کبیرة من الروایة. بحیث اسماء المواقع و الممالک، کما التواریخ، هی اسماء متخیلة علی امتداد الروایة بالرغم من المکان ربط کل منها بمکان ما. و تستثنی من هذه الملاحظه الأماکن (التی اشرنا الیها آنفا) الواقعة خارج الجزیرة العربیة. (*منیف، مدن الملح*، صص ٣٠٣، ٣٢١، ٣٢٤، ٤٣٣)

و بذالک، یکون التحدید المکانی الإسمی المباشر قد غاب، تارکاً التأویل یبین مدی حضوره فی‌الروایة. و اللاتحدید المکانی أو العتمه من سمات الروایة الجدیدة، و هی ما شهدناه فی الخماسیة.

بناء الشخصیات:

صرح النقاد أن الشخصیّة الروائیة «إنسان من ورق» یخلقه الروائی لیحقق بوساطته هدفاً جمالیاً ما، و یطرح رؤیا للعالم یؤمن بها ...(*الفیصل، بناء الشخصیة الروائیة*، مجله الموقف الادبی، العدد ٣٤٥، ص ١١٦). و أنّها محض خیال یبدعه المولف لغایة فنیّة محدودة.

Archive of SID

www.SID.ir

أول ما يجدر قوله قبل مباشرة قضية بناء شخصيات «*مدن الملح*» هو أنّ هذه الشخصيات لم تكن صاحبة دور البطولة الرئيسية فی‌الخماسيّة، أی أنّها لم تشكل عنصر السيادة الروائی. و كما أشرنا سابقاً، «الصحراء هی البطل الحقيقی». إذ علاوة على احتلالها المكان و الزمان، فهی تحتل موقع القلب فی‌علاقات الشخصيات بعضها ببعضها الآخر و بالقضايا المحيطة بها. و قد كان لبطولة الصحراء الأثر الأساس فی تكوين الشخصيات و بلورة مواقفها و أفعالها. خاصة و منيف يصف الشخصية الروائية، فی كثير من مظاهرها و حالاتها، ببذرة القمح (*منيف، رحلة ضود، صص* ٤٤ ـ ٤٥)؛ و بناءاً على رأيه هذا، فلا بد أن تلعب هذه الأرضية دوراً رئيسياً فی بناء الشخصية الروائية ، كما ان البذرة لا تنمو و لاتثمر الا بعد أن تستقر فی التربة.

و لا نستطيع فی‌الرواية هذه، أن نشير الى شخصية محددة على أنّها الشخصية الرئيسية التی حولها تدور معظم الأحداث و تشكل الرواية.و قيل أن «المجتمع العربی هو بطل هذه الرواية.» (Boullata, p.14) فرواية «مدن الملح» تحوی على عدد كبير من الشخصيات، منها المهمة التی تأخذ دوراً مهما فی الأحداث، و منها الثانوية التی تلعب دوراً اقل اهمية، أو مجرد تذكر أو تؤدی دوراً هامشيا و لكن كل هذه الشخصيات معاً تشكل هذا العالم الواسع الذی ترسمه الرواية.

و مع هذا و ذاک، قد اشار منيف نفسه الى غياب البطل ـ الانسان عن الرواية حين قال: «مدن الملح رواية ليس فيها بطل... كل قضية و لها بطلها، و لكن الصحراء تبقى هنا هی البطل الأساسی. طبيعة الحياة الموجودة، و التغييرات و التطورات التی تأتی هی التی تشكّل الشخصيّة الرئيسية بمعنى ما. ان بطل الرواية الفرد، الذی يملأ الساحة كلها، و ما الآخرون الذين يحيطيون به الّا ديكوراً لإبرازه و إظهار بطولاته، إنّ هذا البطل الوهمی الذی سيطر على الرواية العالمية فترة طويلة، آن له أن يتنحى، و أن لا يشغل إلّا ما يستحقه من مكان و زمان. و هنا يظهر مفهوم جديد للبطولة الروائية، حيث يتعاقب الناس ـ الأبطال، كمياه النهر الجارى، بحيث لا يتوقف الواحد منهم أكثر مما يحتمله المشهد أو

Archive of SID

www.SID.ir

الحالة، فاسحاً المجال، بعد ذلک، لکی یأتی آلاخر، البدیل، المکمّل، و یواصل المشوار ـ الحیاة ...» (*منیف، الکاتب و المنفی*، صص ٧٦ و ١٢١). و هذا مما جعل الروائی و الناقد الامریکی Johan Updik یری أن خماسیة منیف تفتقر الی بعض الشخصیات الروائیة لانها لاتمتلک البطل الفرد الرئیس (Updik, p. 117)

و *مدن الملح* بهذا المعنی روایة أماکن و اشیاء و بشر و علاقات متغیرة. کما انها تشبه بشخصیاتها الشعبیة «سباق التتابع». فمتعب الهذال، ضمیر «وادی العیون»، لم یعد لاستمراره فی هذا السباق مسوّغ وجود بعد زوال الوادی، و بعد أن عبّر عن رفضه باحتجاج صحراوی لایجدی إزاء التطورات التی ملأت الصحراء و قد اکملت وضحة زوجته مساره بصمتها الی أن أسلمت الروح، فکان دور مفضی الجدعان، الذی حاول التصدی بعمل ما (ممارسة الطب الشعبی و تحدی الضرب و السجن). غیر أنّه انتهی الی المآل نفسه لانتمائه الی العقلیة و العصر نفسهما. و هنا أطل شمران العتیبی لیکمل السباق، و لکن بأسلوب آخر، اسلوب فیه «سیاسة» و شتائم و أنشطة و استفزاز.

و یلخص منیف مراحل «سباق التتابع» هذا و تبادل الأدوار بین الشخصیات التی حاولت المواجهة بقوله: «متعب الهذال بطل العصر الماضی لقد انتهی و یجب أن ینتهی... إن البطولة الحقیقیة هی أن یکون الإنسان ابن عصره، ابن البیئة و الشروط التاریخیة التی یولد فیها. و بمقدار ما یحاول متعب الهذال أن یکون بطلا بطریقته و حسب منطقه، فان شخصیة أخری موازیة تظهر فی الأخدود و هی شخصیة شمران العتیبی الذی یمثل ماضیاً لکن فیه شیئا من ملامح المستقبل ...» (*منیف، الکاتب و المنفی*، ص ٢٤٧).

و قد عبر منیف عن تصوره لأدوار الشخصیات «المواجهة» و لمصائرها بأشکال مختلفة فی‌الأسلوب وفی‌الأحداث المحیطة بها و فهو غلف متعب و زوجته و مفضی (شخصیات الجزء الأول الرافضة) برمزیة افتقدها شمران (شخصیة المقاومة فی باقی الأجزاء، الی حین انبعاث الرمزیة من حوله فی آخر الجزء الخامس). غیر أن هذه الرمزیة لم تکن لتظهر الا لحظة انتهاء الشخصیة نفسها، أی هزیمتها و موتها. فمتعب احاطت به

Archive of SID

www.SID.ir

الرموز حين اختفى، و بات يظهر بين الحينة و الأخرى على ناقة مسرعا أو محاطا باليمام الأبيض، أو وسط طوفانات المياه. و المثير أن احداً لم يكن يلحظ وجوده غير ابنه فواز (الذى كان قد شاهده قبل اختفائه بحالة من القهر و الفشل). و زوجته «وضحة» صمتت بعد اختفائه، و قادت بصمت مطبق مسيرة النزوح ـ التيه من الوادى ، فكانت فى صمتها استمراراً لاختفاء متعب و انتظارا لعودته المؤجلة و لاستعادة صوتها و كلماتها. أما مفضى، فمع بدء مسيرته نحو الهزيمة و الموت، بات خارق القوه و القدرة، يعالج عشرات الحالات المستعصية، ثم أحدث بعد موته رعشة أصابت أهل مدينته جميعا فجعلتهم يبكون و يختفون و يرون البحر مضطربا و الغزال مرعوبا و الحمام منتشراً فوق الرؤوس.

بذلک، تكون الرموز التى أحاطت بنهاية متعب و مفضى متشابهة إذ هى مست الحيز المائى (البحر و السيل) و الكائنات القائمة فى جواره الحيوى (الغزال و اليمام و الحمام)، ثم مست العامة (خاصة فى حالة مفضى).

و هكذا يكون الأمر بالنسبة الى «شمران العتيبى، فيرسمه منيف على نحو تقريرى مباشر فى مختلف معالمه، الى حين اغتيال سلطان فنر و اضطراب أوجه الحياة جميعا فى موران عندئذ أخرج بندقيته على نحو غير متوقع و أطلق النار بغزارة، و حلقت فوقه إثر ذلک رفوف من اليمام، و اكتسب بذلک بعداً رمزياً.

بهذا المعنى تتكرر من الجديد الرموز عينها، و تشكل جميعا صور انتعاق و طيران و حريه من ناحية، و مناخا من الهزيمة أو الاستسلام للواقع أو الهروب منه نحو البطولة الرمزية و التحول أسطورة من ناحية ثانية.

هذا و «المشترک الوحيد بين عشرات الشخصيات التى تظهر على مسرح الأحداث فىهذه رواية، أنّها كلها تسير نحو مستقبل مجهول، نحو النهايات و نحو التيه فى بحر الظلمات (القاسم، الشخصية فىرواية مدن الملح، موقع الكاتب الفلسطينى، د. نيه القاسم). هذا ما اشار إليه منيف فى بداية روايته: «إنّه وادى العيون ... فجأة وسط الصحراء القاسية العنيدة، تنبثق هذه البقعة الخضراء و كانّها انفجرت من باطل الأرض أو سقطت من

Archive of SID

www.SID.ir

السماء فهی تختلف من کل ما حولها... حتی لیحار الانسان و ینبهر، فیندفع الی التساؤل ثم العجب «کیف انفجرت المیاه و الخضرة فی مکان مثل هذه؟» (*منیف، مدن الملح، التیه*، ص۷) لکن هذا العجب یزول تدریجیاً لیحل مکانه نوع من الإکبار الغامض ثم التأمل و یحکم شخصیات الروایة شیء واحد و هو الدهشة و الانبهار أمام التغییر المفاجیء السریع الذی تحدث عنه منیف فی‌لسان إحدی شخصیاتة و هی «نجمة المثقال» العرافة: «من وادی الجناح حتی الضالع، و من السارحة حتی المطالق، النار تلهم النار، و الصغیر یموت قبل الکبیر. أولها عدّ و آخرها مد، و الولد لا یعرفه أبوه و الأخ لایعرفه اخوه» (*منیف، مدن الملح، التیه*، ص ۲۵۸). فأصبح الناس یتذاکرون هذه المقولة و یضیفون من عندهم علیها و یتناقلونها مع بعض التحریف.

فروایة *مدن الملح* روایة حافلة بشخصیات کثیرة مختلفة متنوعة، منها التی تظهر و تختفی و ینساها القارئ بمجرد ان انتهی دورها، و منها التی تأخذ قسطا فی‌تطور الفعل و دفع الأحداث و لکنها تکون محدودة فی‌مدی فاعلیتها، و منها شخصیات تفرض وجودها و تدفع بدینامیتها و وهجها الأحداث و تظل عنصر جذب و تأثیر و إن اختفت عن المسرح. مثل متعب الهذال الذی رغم اختفائه بعد تدمیر وادی العیون فی الجزء الأول (*منیف، التیه*، ص ۱۰٦) من روایة مدن الملح ظل یفرض وجوده علی الناس و الأحداث لعشرات السنین.

یبقی أن الأسماء المنتقاه للشخصیات، کمثل متعب الهذال و مفضی الجدعان و ابن نفاع و الحکیم صبحی المحملجی و غزوان و مطیع و سعید رضائی و سمیر و صالح الرشدان و شمران العتیبی و... تحمل جمیعها معانی تشبه الی حد ما شخصیات حامیلها.

هذا و قد لعبت الشخصیات المحوریه فی الروایة دورها الروائی من جهة و دورها السیاسی الذی أراده لها منیف من جهة ثانیة. کما أنها جسدت سیر أشخاص حقیقیین لعبوا أدوارا هامة فی‌صناعة تاریخ الجزیرة العربیه عامة و المملکة العربیة السعودیه خاصة.

فالسلطان خریبط الذی احتل بعض مناطق الجزیرة العربیه و أقام السلطنه «الهدیبیة» هو صورة للملک عبدالعزیز آل سعود الذی أنشأ المملکة السعودیة. و هاملتون الانکلیزی

Archive of SID

www.SID.ir

الذی دعی بالصاحب فی‌الروایة معتنقا الاسلام کان مستشار السلطان خریبط و مبعوث الانکلیز وهو یرمز لشخصیه السیرسنجن فیلبی وفد الجزیرة بعد الحرب العالمیة الأولی، و لعب دوراً استثنائیاً فی‌نصح الملک عبد العزیز و رسم سیاساته علی ضوء المواقف البریطانیة. و هو ایضاً اعتنق الاسلام و أسمی نفسه عبد اللّه. و السلطان خزعل وریث خریبط الذی لم یدم حکمه طویلا، هو تمثیل للملک سعود بن العزیز الذی حکم بین العالمین ١٩٥٣و ١٩٦٤ قبل ان یعزل من منصبه. و خلفه فی‌الخماسیّة السلطان فنر، الذی تمیز عن أخوته بالثقافة و الحکمة و الدهاء ثم مات إغتیالا، هو نفسه الملک فیصل الذی استلم بعد شقیقه سعود عام ١٩٤٦ و اغتیل عام ١٩٧٤. و هو شن الحرب (غیر المعلنه) علی جمهوریة الیمن الشمالی، کما شن فنر الحرب علی الدواحس حیث وقعت الثورة فی‌الخماسیّة. أما الحکیم صبحی المحملجی القادم من بلاد الشام و الملازم للسلطان خزعل مستشاراً و صانعا الثروة، فهو نسخة عن الطبیب السوری رشاد فرعون الذی وفد المملکة السعودیه مطالع الخمسینات ولعب دوراً استثنائیاً فی تحدید شکل بنیتها الداخلیة. (Sabry, p.35 – 40)

و هذا ادّی الی تذمر نقاد عرب معنیین من مبالغة عبد الرحمن فی‌ملء الأجزاء الأخیرة من الخماسیة بشخصیات تاریخیة الی درجة أن اعداداً کبیرة من شخصیات الروایة توازی شخصیات واقعیة خارجها. یذهب البعض الی حد زعم إن منیفاً لایقوم من حیث الجوهر الا بإعادة إنتاج تاریخ «الکسی فاسیلیف» للعربیة السعودیة بصیغة روائیة. (المصدر نفسه، ص ٢١)

ولکنها تهمة بعیدة کل البعد عن الإنصاف. فمدن الملح زاخرة بشخصیات إبداعیة مفعمة بالحیاة، ملأی بأناس مثل متعب الهذال، مفضی الجدعان، شمران العتیبی، صالح الرشدان و شداد المطوع. وضحة الحمد، نجمة المثقال و عدید من الشخصیات التی خلقها منیف و جعلها تنمو و تظهر علی صعید الروایة. دون ان نجد لها مثیلات فی الواقع الخارجی...

Archive of SID

www.SID.ir

من کل ذلک، نستخلص أن العمل الفنی فی‌الخماسیّة تداخل فی‌اکثر المواضع مع التوثیق الاجتماعی التاریخی. فالمکان معروف، و الزمان محدود، و أبرز الشخصیات التی مثلت السلطة النفطیة و الوافدین الی الجزیرة العربیة للعمل معها تجسد شخصیات لعبت أدوارا تاریخیة.

النتائج:

بعد ما استعرضت فی‌هذه المقالة العناصر الفنیّة فی‌تکوین خماسیّة «مدن الملح» الروائیة لعبدالرحمن منیف حصلت علی نتائج و هی:

اولاً: إن الکاتب عمد الی إتمام المعنی الروائی فی‌کل جزء من الخماسیّة علی نحو یمکن معه الإکتفاء بقراءة الجزء الواحد للوقوف علی الواقع الاجتماعی الذی تصوره الخماسیّة.

ثانیاً: عناوین الأجزاء تعکس مضمون کل جزء لجهة تعبیره عن الاشکالیة التی یحاول الجزء طرحها. فهی روایة رمزیة من حیث الشکل (العناوین)، و المحتوی الذی ترمز الیه عناوین الخماسیة.

ثالثاً: تأثر منیف فی نظرته الی اللغة الروائیة بمذهب «باختین» حیث لجأ منیف فی‌-الخماسیّة إلی إستخدام اللهجات المحلیة و اللغة الفصحی.

رابعاً: انّه لم یقیّد نفسه بـ(التسلسل الزمنی) المألوف عند الروائیین التقلیدین فتداخلت الأزمنه عبر الحکایة. و هذا أدی الی «التشویش» أو اللاتسلسل الزمنی فی‌روایته.

خامساً: تعد نظریة التحریف الزمنی من ابتکار الشکلانیون الروس، و بهذا یستنتج أن منیفاً قد إهتم فی‌الروایة إلی وجهة نظر الشکلانیین.

سادساً: إن الخماسیّة بدأت تتعامل مع المکان علی نحو لم یسبق للروائیین التقلیدیین أن تعاملوا مه، حیث تقع علیه التعمیة علی نحو لایقدم إلی المتلقی تقدیماً واضحاً و شاملاً و فی‌الوقت نفسه یمکن تحدید المکان و ترسیم حدوده معاً!

Archive of SID

www.SID.ir

سابعاً: إنه فی روایته هذه تأثر بتحول موقف النقد الغربی من دور شخصیة البطل فی الروایة حیث حاول هذا النقد اهمال الشخصیة الرئیسیة و حتی الغاء دورها کلیا.

ثامناً: روایة «مدن الملح» روایة دیالوجیة، تقوم علی تداخل الأصوات المختلفة فی‌سیاق سردی واحد و المتتبع لهذه الأصوات یستطیع أن یدرک تمایزها و تفاوتها فی‌النسیح الکلی للروایة.

المصادر:

آغا، صالح سعید، *الرمز التوراتی فی الجزء الأول من خماسیّة «مدن الملح»*، «التیه» لعبدالرحمن منیف، مجلة *الابحاث الصادرة عن کلیة الآداب و العلوم* ، الجامعة الأمیرکیة فی بیروت، ١٩٩٤.

ابراهیم، صالح، *الفضاء و لغة السرد فی روایات عبدالرحمن منیف*، بیروت، المرکز الثقافی، ٢٠٠٣.

ابن‌منظور، *لسان العرب*، *بیروت*، *دار صادر*.

باختین، میخائیل، الخطاب الروائی، ترجمه محمد برادة، القاهرة، دار الفکر للدراسات و النشر و التوزیع، ١٩٨٧.

باختین، میخائیل، *الکلمة فی الروایة*، ترجمه یوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٨.

دیب، د. محمد، *فن‌الروایة فی المملکة العربیة السعودیة بین النشأة و التطور*، المکتبة الأزهریة للتراث، قاهرة، ١٩٩٥.

رضا، الشیخ احمد، *متن اللغة. دارمکتبة الحیاة*، ١٩٥٨.

الفیصل، سمر روحی، *بناء الشخصیة الروائیة: مجلة الموقف الأدبی*، العدد ٣٤٥، ص ١١٦.

القاسم، نبیه، *الشخصیة فی‌روایة مدن الملح، موقع الکاتب الفلسطینی*، د. نبیه القاسم.

القشعمی، محمد، *ترحال الطائر النبیل (عبد الرحمن منیف)*: بیروت، دار الکنوز، ٢٠٠٤.

لوتمان، یوری، *مشکلة الجمال الفنی فی‌جمالیات المکان*، ترجمه سیزا قاسم، مغرب، دار البیضاء، ١٩٨٨.

المحادین، عبد الحمید، *التقنیات السردیة فی‌روایات عبدالرحمن منیف*، بیروت المؤسسة العربیة للدراسات و النشر، ١٩٩٩.

مرتاض، د. عبد الملک، *فی‌نظریة الروایة (بحث فی‌تقنیات السرد)، المجلس الوطنی للثقافة و الفنون و الآداب*، *الکویت*، ١٩٨٨.

منیف، عبدالرحمن، *مدن الملح، التیه، المؤسسة العربیة للدراسات و النشر، بیروت*، ١٩٨٤ .

منیف، عبدالرحمن، *مدن الملح، الأخدود، المؤسسة العربیة للدراسات و النشر*، بیروت، ١٩٨٥.

منیف، عبدالرحمن، *مدن الملح، تقاسیم اللیل و النهار، المؤسسة العربیة للدراسات و النشر*، بیروت، ١٩٨٩.

منیف، عبدالرحمن، *مدن الملح، المنبت، المؤسسة العربیة للدراسات و النشر*، بیروت،١٩٨٩.

منیف، عبدالرحمن، *مدن الملح، بادیة الظلمات، المؤسسة العربیة للدراسات و النشر*، بیروت، ١٩٨٩.

Archive of SID

www.SID.ir

منیف، عبدالرحمن، *الکاتب و المنفی*، تحریر محمد دکروب، *دارالفکر الجدید*، بیروت،۱۹۹۲.
منیف، عبدالرحمن، *رحلة ضوء*، *المؤسسة العربیة للدراسات و النشر*، بیروت،۲۰۰۳.
النابلسی، شاکر، مدار الصحراء (*دراسة فی‌ادب عبد الرحمن منیف*، *بیروت*، المؤسسة العربیة للدراسات و النشر، ۱۹۹۱ م.
مجلة الجدید، العدد الثانی عشر- شتاء ۱۹۹٦، محور خاص بعبد الرحمن منیف.
Ilana, Xinos " The formation of an imagined community in Cities of Salt " Arab studies Quarterly (ASQ),2006
Boullata, Issa.Is,"Social chang in Munif's cities of salt" Jornal of Middle Eastern Literatures. 8.2 ,1998.
Updike, John. "Satan's Work and Sited Cisterns ". The New Yorker, October.1988, P. 117.

Archive of SID

www.SID.ir